استطلاع

الأمم التي تمر بظروف متقلبة، سواء كانت عصيبة أم منفرجة فإن ذلك يؤثر في ثقافتها وفي إنتاجها الثقافي، فتبرز اتجاهات متنوعة لنصوص أدبية أو آراء ثقافية قد تتقاطع وقد تلتقي لكنها تتجه للتأسيس في ما بعد إلى مدرسة - ربما - جديدة في التلقي الثقافي والنتاج الأدبي.. وفي العراق الذي مر بمحن عديدة وانقلابات وثورات نجد أن المرحلة الستينية التي شهدت تغيرا في الحكم الملكي أنتجت إبداعا مغايرا في كل أنواع الإبداع بدءاً من الرواية والقصة والشعر والمسرح والتشكيل لتأتي بعدها المرحلة السبعينية التي شهدت ولادات جديدة لعناصر إبداعية لتدخل المرحلة الثقافية في واقع آخر في ثمانينيات القرن الماضي، حين كانت الحرب تأخذ شبابا في رحاها، فنتجت نصوصا لبست الخاكي وتنفست البارود لتأتي بعدها مرحلة الحصار في التسعينيات والسنوات الأولى من الألفية الثالثة ليبدأ نوع جديد من النص أو النتاج الثقافي يحاول أن يستخدم فيها القناع والتورية لمجابهة ومواجهة عناصر التخلخل في البنية الاجتماعية التي تقوضت بفعل القوة السلطوية. وقد شهد العراق تغيرا جذريا بعد عام ٢٠٠٣ حين انتهت قوة السلطة وانتهت مرحلة الحاصر فهل أصبح لدينا نص مغاير ونتاج مختلف ينطق بالمرحلة أو يؤسس لمرحلة جديدة؟ هذا السؤال وجه إلى عدد من الأدباء العراقيين فكان جواب كل منهم بحسب اشتغاله لكنه يرتبط بذات المعنى والقصدية المراد الوصول إليها.

الأدب العراقي بعد عام ٢٠٠٣
هل شهد بروز ظاهرة ثقافية ؟

علي لفتة سعيد

استثمار الذائقة

أما الروائي ضياء الخالدي فقال: إن هناك فرقا كبيرا ما قبل وبعد ٢٠٠٣، وهنا لا نبغي أن نقلل من أهمية الأعمال الصادرة في الحقبة الماضية، لأنها محكومة بمرحلتها التاريخية، وزمنها الخاص، وأننا أبناء شرعيون لروايتنا العراقية التي كتبها فرمان والتكرلي والربيعي والركابي، لكن حديثنا هو فني، ويحمل ذائقة ترتبط بمرحلتنا التي نعيش فيها، وهذا بالتأكيد ينتج تصوراً للتعاطي مع كتابة نص يطمح أن يكون مقروءاً، وينهي القطيعة بين المتلقي وبين أدبنا المحلي.. ويضيف إن ثمة حساسية واضحة النتاج الذي يكتبه الجيل الجديد، وأبرز ملامحه الصورة. وهذا يأتي بالابتعاد عن اللغة المقعرة، والهذيانية، التي سادت في سردنا العراقي.. ويوضح إن الصورة تعني انشدادا ومتعة لحكاية تروى، وقارئ أيا كانت خلفيته الثقافية فإنه يتواصل مع النص، من دون أن يرمي الكتاب. هذا هو الرهان الأول. واستثمرت هذه الذائقة الحديثة للفن الروائي التحول الذي جرى في بلدنا، وكمية الحرية المتاحة، فانطلقت في مغامرتها، وقدمت نماذج غطت مساحات واسعة من الحياة العراقية. أما عن التورية والقناع كما جاء في سؤالك، فإنها من مستلزمات الفن كما اعتقد، ويبقى استخدامها محكوما بالثيمة المختارة، وكيفية التعامل مع حدث يعيش على الأرض، ولا يزال يؤثر في الواقع، وينتج مبررات وجوده بين آونة وأخرى.

المشكلة الثقافية

الشاعر جمال جاسم أمين قال: ربما يمكن أن نطلق تسمية جيل التغيير تماشيا مع التقليد العراقي الذي يربط الأجيال الأدبية بأحداث سياسية هامة كجيل الحرب في الثمانينات وجيل الحصار في التسعينات والآن جيل التغيير السياسي الذي عصف بالعراق أعقاب ٢٠٠٣، ولكن هل انعكس مثل هذا الحدث على موضوعات الشعر أو أنماط أدائه؟ أم انه توصيف إجرائي لأغراض الفرز ليس إلا ؟.. ويوضح أمين: أظن إن مشكلة النص الجديد الظاهرة بعد التغيير ثقافية أكثر منها فنية تتعلق بالأشكال أو أنماط الأداء كما أظن أن سؤال الجدوى/ جدوى الكتابة عموما أكثر إلحاحا من سؤال كيف نكتب أو ماذا نكتب! ويضيف: اقصد أن الأزمات الوجودية التي تتعرض لها البلدان تحتاج إلى أسئلة أقل ترفاً من أسئلة الفن التقليدية وفي العراق تحديدا تخلفت مثل هذه الأسئلة إلى حد الصمت.. ما يزال الشعر يكتب تقليديا و ما تزال المؤسسات تمارس دورها الببغاوي من خلال مهرجانات احتفالية ترمم موقعها الوظيفي من خلالها لا غير، بينما الأسئلة الشعرية والثقافية الناهضة .. الطارئون وجدوا فرصتهم في فسحة الفوضى التي ما تزال سائدة بأساليب شتى وللأسف أقول إن المؤسسات الثقافية تجد ضالتها أحيانا في وجود هؤلاء الطارئين ربما لأنهم اقل كلفة من الحقيقيين والكلفة هنا لا بالمعنى التجاري بل بمعنى المطالبة المشروعة باستحقاقات المثقف والفعالية الثقافية وهنا يتم استبدال الأصيل بالطارئ.. كل هذا يجعلنا نتحفظ عندما نسأل عن ولادة جيل أو ظاهره لكن ذلك لا يمنع وجود أسماء مهمة في المشهد رغم اضطراب هذا المشهد وعدم وضوح ملامحه حتى اللحظة.. ويشير إلى أن موضوعة الإحباط التي سادت في أدبيات التسعينيات ما زالت سائدة حتى في مدونات الشعراء الجدد/ شعراء ما بعد التغيير مما يعني إن التحولات السياسية ما زالت لم تلامس ذات المبدع و لم تحرف بوصلته باتجاه ما.. ما يزال الانتظار يأكل الزمن/ انتظار أن ينقشع غبار اللامعنى عن سماء الحياة الثقافية ولا احد يعرف متى!

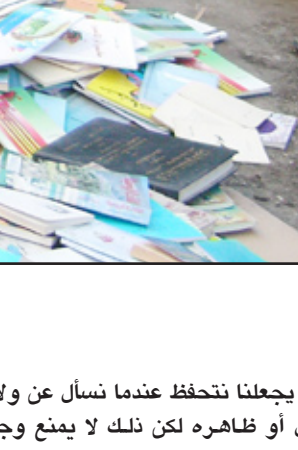

إهمال قصدي

ويعتقد الناقد والقاص علاء مشذوب أن كل مرحلة جديدة في الحياة والوطن، لا بد أن يكون لها رجالاتها، والوضع الثقافي في العراق بعد الاحتلال هو كذلك، فقد ظهرت صحف جديدة، تخصص أغلبها صفحة ثقافية أو أثنين، تشخص بالعموم وتسلط الضوء على النتاج الثقافي العراقي والعربي وفي بعض الأحيان العالمي، ومنها من يخصص ملحقا كاملا للأدب والثقافة.. ويضيف إن هناك تفاؤلا في أن الجيد يفرض نفسه (والسيئ والطارئ لا بد أن ينزاح من المشروع النقدي العراقي)، وأفاد بأن ما يشهده التغيير بعد عام ٢٠٠٣ هو وجود إهمال قصدي من قبل المؤسسات الحكومية، في تبني المشروع الثقافي العراقي بالعموم والنقدي بالخصوص، إذا ما علمنا أن ميزانية وزارة الثقافة (بلا وزير) تكاد لا تذكر، وأن دار الشؤون الثقافية هي مؤسسة هرمة، شرب مرًها أغلب المثقفين من الذين لديهم إبداعات مخطوطة راح يتراكم على أغلفتها أطنان التراب وهي مرمية في أدراج الروتين والانتظار لأكثر من أربع سنوات، دون أن ترى النور، أما ما تطبعه تلك الدار، فإنه سيرمى داخل مسقفات مهملة، وعندها ستكون الأرض التي تستقبل (ضروك) الحمام والطيور التي تحتمي داخل تلك المسقفات من حر الصيف وبرد الشتاء.

امتداد أم توجهات

الشاعر مازن المعموري يرى التغيير الشامل الذي حصل في العراق ما بعد ٢٠٠٣ وضع المثقف العراقي أمام امتحان كبير، فهو على النقيض من تجارب المجتمعات الأوربية التي قدمت مستويات متعددة للخطاب الثقافي سواء على المستوى الفكري الذي قوض الدكتاتورية القومية في أوربا، أو على مستوى النتاج الثقافي العام الذي يبتدئ في الفنون والآداب، فكان التفاعل مباشرا مع تلك المتغيرات وهو ما يسم نمط العلاقة الجذرية بين المثقف والمجتمع، أما على المستوى العراقي فان المثقف العراقي بقي منفصلا عن المجتمع أو أن آليات السلطة القمعية نجحت بسهولة في ردم تلك الآصرة الخطيرة التي بناها المثقف في بدايات القرن الحداثي على يد كبار الأدباء التنويريين مثل الزهاوي والرصافي والجواهري وغيرهم، والحقيقة فإن الحرب التي دمرت مفاهيم المجتمع نحو المثقف منذ ١٩٨٠ وحتى الآن قد شكلت بؤرة الإشكالية التي وضعت المثقف في واد والمجتمع وحاجاتهم المعرفية في واد آخر.. ويضيف المعموري التحول العسكري بعد عام ٢٠٠٣ كان بعيدا عن الممارسة المدنية للتغير الثقافي والاجتماعي ما سبب عدم ظهور المثقف كحلقة مهمة في الصراع السياسي في المنطقة العربية والعراقية تحديدا، وبالتالي بقي هذا الفاصل الوجودي متمركزا مع نشوء حركات التغيير الثورية في ما يسمى الربيع العربي، أما على المستوى الأدبي واقصد النص الأدبي فقد اجتهد الشاعر والقاص والمسرحي والفنان التشكيلي في طرح نداءات التعايش والسلام دون فائدة تذكر، وكانت النصوص الروائية التي تعالج الواقع العراقي غير الخاضعة للرقابة القديمة في أبهى صورها تاريخيا وكذلك الأجناس الأخرى المحايثة لها كالشعر والمسرح والتشكيل بحيث يمكن القول إن الواقع الأدبي والإبداعي بشكل عام يعيش فترة من الحرية ومحاولة الحصول على مسار جديد للخطاب الأدبي مع المجتمع إلا انه ما زال في بداية الطريق ونحن بحاجة قبل ذلك الى إعادة ثقة المجتمع بالمثقف الذي بقي لفترات طويلة بوقا للسلطة وتابعا لها مع الانتباه إلى الخط المضاد واحترام منجزهم لأنهم الصورة المضيئة للأدب العراقي حتى الآن .

غياب الفعاليات

ويرى الشاعر ماجد البلداوي انه إذا أردنا أن نتحدث عن وجود ظاهرة يعني وجود حداثة يمكن أن نؤسس لها في ظل واقع سياسي واجتماعي واقتصادي متخلف في ظل ظروف لا تتناسب مع دعوات الحداثيين؟ ويضيف إن الحداثة تعتمد أساسا على ما يجري من تحولات في بنية المجتمع وما يشهده الواقع السياسي والاجتماعي وتفاعلات الأديب ومنهم الشعراء إزاء ما يحصل وقد تدخل عدة عوامل أساسية في هذا المفصل المهم من حياة المبدع عموما. لذلك تكون الحداثة ضرورة حياتية تفرضها راهنية الواقع الثقافي بمعنى أن المبدع يؤسس لحالة جديدة من التمرد على الأشكال والمضامين والدلالات والانطلاق إلى أفق أوسع وأعمق بتحديث اطر التعبير واستثمار طاقة اللغة بوصفها أداة الشاعر التعبيرية في توليد دلالات جديدة ومفاهيم جديدة، ولو تابعنا سيرة الأجيال الشعرية لتأكد لنا ما ذهبنا إليه.. ويشير إلى انه لم نصل بعد إلى وجود ظاهرة إبداعية بالمعنى لان المصاعب التي تواجه المبدعين في العراق الآن هي غياب المؤسسة الثقافية الحاضنة للإبداع والمبدعين التي تشكل أول عقبة أمام الشاعر في الانطلاق وإيصال صوته للناس من خلال المهرجانات التي تقام داخل وخارج العراق كما أن عدم فعالية الاتحاد العام للأدباء والكتاب ومحدودية أنشطته أسهما في تهميش وتغييب أصوات المبدعين.

الغربة والحرية

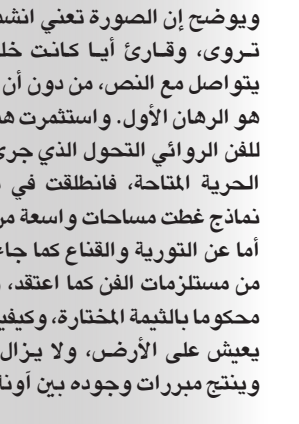

لكن الشاعر عادل الشرقي المقيم في فلندة يرى أن النص الأدبي أو التاج الثقافي عموما لم يتغير ولن يشهد بروز ظاهرة أدبية في داخل العراق لأسباب تحكمها المؤسسات التي تسيطر على المشهد الثقافي. ويضيف أن الذي يكون في الخارج يكون في جو من الحرية التي تتيح له أن يكتب نصا جديدا مغايرا لان الغربة تجعلك - بحسب الشرقي - وجها لوجه أمام تجربة جديدة، فأما أن أتواصل وأبقى متجليا في كتابتي للنصوص أو أن أنطفئ وأتلاشى، ولهذا فقد أضافت لي الغربة أفقا جديدا ورؤى تحلق بي نحو آماد بعيدة، فهنا لا بد لي من بداية جديدة أخترق فيها المديات المحلية التي كانت تقيد حركتي وتجعل نصي يرتدي ثيابا ليس فيها إلا ما هو محلي وإقليمي تنحصر دلالاته ورموزه في المعطيات اليومية التي نعيش تفاصيلها.

معايشة القديم

لكن الشاعر نبيل نعمة الجابري يرى أن الجيل الجديد عليه معايشة الجديد القديم بل لزاما علينا معايشته ليس لأننا تجريبيون، بل لأن الحياة تتفاعل مع الواقع، الواقع الذي ينأى بنفسه عن الركود والجمود والتكلس، ما يعيشه المثقف عموما والشاعر خصوصاً من دخول التقنيات الحديثة على المشهد الأدبي، سواء كان ذلك عبر استثمار الشبكة المعلوماتية أو غيرها من القنوات والوسائط، أثّر وساعد في عمليتي الإنتاج والإعلان، وإبراز الكثير من الظواهر الإبداعية التي كنّا نقرأها في المحليات والمجلات الأكاديمية فقط.. ويوضح: لن أتحدث هنا عن النص الجديد (الميديا) الذي صار ظاهرة لم تقتصر على جيل الشباب فحسب، ولم يكن ليولد من رحم الكتب لولا وجود الوسائط الداعمة والساندة، كذاك هو الحال بالنسبة للنص التفاعلي الرقمي، وغيرها الكثير من الظواهر، عدا هذه مفهومات جثمت على صدر المشهد الثقافي لعقود، كمفهوم الشاعر النجم، والشاعر الأوحد، والشاعر الأسطورة وغيرها من التسميات المفتعلة التي لم يكن لها من هم سوى توقيف مسيرة التطور الأدبي واحتكارها ليس إلا...